لا حوافر ... للجواد

قصة بقلم أحمد حميد

هذه الليلة سيبدأ التجربة . سيحاول ان يدفع الى الوجود تلك النسمة التي ما فتئت منذ اسبوع تلوب في رأسه ، وتركل جدرانه الملساء بأقدامها الصغيرة المنمنمة .

سيحاول ان يعود آلها تعنو له الكلمات ، وتجثو بين يديه : « لبيك مولاي لبيك » فيستلها من شعورها بنشوة ذى السلطان الواثق من قدرته ، ويعركها ما شاء ، ليجبل منها ما يشاء من دنى وعوالم .

هذه الليلة سيحاول ان يستنبت لخياله اجنحة غير تلك التي كانت له ، ثم تساقطت ذات يوم واحترقت .

سيحاول ان يحك صدأ قلمه بحوافر ذلك الجواد العجيب الذي ينطلق بطموحه فلا تكتكف من عنفوانه لا نهايات الفضاء ، ولا تحد من قدرته على الاقتحام ، تخوم السماوات .

... ورنا الى الساعة في معصمه .. انها الحادية عشرة ليلا . اذن . لقد آن الاوان لكي يبدأ . زوجته تشخر برقة في الغرفة المجاورة . وطفلته تركها منذ لحظات تحتضن زجاجة حليبها بتشبث طفولي عذب ، وابنه ، ابن الثالثة ، ما زال يفتح عينا ويغمض الاخرى في محاولة اخيرة للتمرد على السلطان الذي تعود ان يحتجز في كفيه ، عند كل مساء ، كل تصخاب الطفولة ، وكل عبث الصغار وشيطناتهم .

وجلس الى مكتبه ، وامسك القلم بين اصابعه بنشاط وتحفز ، ولكن نسمة باردة نعرته في ظهره ، فقام واقفل النافذة وهو يتمتم :

ـ يقولون ان برد الصيف مؤذ ، وعلى المرء ان يحتاط . ها قد احتطنا .

وعاد الى مقعده .

كيف يبدأ قصته ؟

لعن الله النسيان . لقد كان عليه ان يشتري الدواء للخادمة . فها هي ذي تسعل بشدة سعالاً يبدو احيانا مصطنعا ، كأنها انما تريد به ان تذكره بنفسها .

ـ حسنا . سوف اشتريه لها غدا .

ودون امامه في اعلى الصفحة : « الدواء لنوال » .

مسكينة نوال . لقد مات ابوها منذ شهرين . مات لان الناس ما عادوا يعرفون الرحمة . لان قلوبهم صارت من خبث ورصاص وصوان. مات لان احدا لم يشتر له الدواء فنهش الداء كبده ، ولما حملوه الى مستشفى مجاني سألوه :

ـ هل معك ثمن الدواء ؟

فصمت يأسا وخجلا ، وقلبوا هم شفاههم :

ـ يؤسفنا اننا هنا لا نقدم لزبائننا الدواء بالمجان ، وانما نقدم لهم الراحة الكبرى !

وابتسم المسكين :

ـ هذا دواء يوزعه الله مجانا على جميع عباده .

ثم مات ، قرير العين ، لانهم اتاحوا له ان يحصل على الراحة الكبرى ، على هذه المنحة الالهية دون ان يدفع شيئا والحمد لله .

... ومسح ظافر جبهته كأنه يذب هذه الخواطر السوداء :

ـ مالنا ولها الاستطراد ، ولنبدأ القصة !

... وهم ان يبدأ ، ولكن صوت زوجته تناهى اليه ملتوتا ، بالتعصب والنعاس :

ـ ظافر ... الا زلت مستيقظا ؟ لقد نسيت ان اقول لك ان الحاج عبد الحميد مر اليوم ليذكرنا بأن قسط البيت قد استحق .

ليتها ظلت تشخر . ان شخيرها الهادىء اعذب بكثير ، واصفى الهاما من لسعة هذا السوط . ترى اما كانت تستطيع ان تخبىء له هذه « البشرى » حتى الصباح ، رحمة بشهية الابداع التي تستبد به في هذه اللحظة ؟

ولكن ما ذنبها هي اذا كانت شهية القبض عند الحاج عبد الحميد متهيجة كل التهيج ، وما ذنبها اذا كانت الاشهر الثلاثة قد تخابثت عليه فخبأت وراء الباب ، اخواتها الثلاث الماكرات ؟

وهمس في اذن نفسه بجدية :

ـ لماذا لا تتعالى يا رجل فوق هذه التفاهات ؟ وتنسى همومك الارضية كلها ، لتتذكر فقط انك امام لحظة نادرة من لحظات الخلق ؟

وزكزكته لهجته الجادة مع نفسه ، فقهقه يخاطبها بصوت مسموع :

ـ و هل لك يا محترمة ان تقنعي مصلحة الضرائب بأن تنساني غدا ، فلا ترسل مأمورها « الخفيف الدم » ، الذي ترك لي البارحة تهديدا ناعما بأنه سوف يعسكر في مكتبي منذ الصباح ، ولن يتزحزح الا اذا دفعت له ما تراكم علي من ضرائب الدخل ؟ وهل لك ان تتذكري بأن ضربتين على اليافوخ ، وفي يوم واحد ، امر لا يطيقه الصابرون من اولي العزم ؟

... وقطع حواره مع نفسه ، صراخ الطفلة التي يبدو ان نوبة من المغص قد فاجأتها على حين غرة ، ولعلع صوت امها متخففا هذه المرة من كل اثر للنعاس والتثاؤب المتكاسل :

ـ ظافر ... ناولني قنينة ماء الزهر ، ودواء المغص !

ولبى ظافر الامر الصارم بسرعة سيارة اسعاف محمودة النخوة ، ثم وقف الى جانب السرير يرقب الصغيرة وهي تقالب مغصها ، حتى اذا هدأت بعد قليل ، تطلع الى ساعته وتمتم بتساؤل استنكاري :

ـ الساعة الواحدة ؟

ثم تابع كأنه يستنهض همته :

ـ لا بأس . فالساعات الاخيرة من الليل هي دائما انسب الاوقات لاستنزال الوحي ...

واطفأ النور في غرفة النوم ، وانسحب على رؤوس اصابعه محاذرا ان يحدث أية جلبة قد تجفل الصغيرين ، وما كاد يأخذ مكانه امام مكتبه ، ويمسك بالقلم ، حتى تذكر انه نسي شيئا هاما كان من واجبه ان ينجزه قبل ان يباشر اي عمل آخر . لقد نسي ان يعد طلب اخلاء السبيل الذي يتوجب عليه ان يتقدم به غدا لقاضي التحقيق ، ليخصل منه على قرار باخلاء سبيل موكله ذيب الساعاتي . مسكين ذيب . لقد مضى على توقيفه قرابة الشهرين ، لانه سب دين الدولة التي لا توفر العمل له وللالاف من امثاله ، ولا تستحي ، مع ذلك ، من تذكيرهم دائما بما لها عليهم من حقوق ، ولا تتوانى لحظة عن ملاحقتهم بما استحق لخزينتها من ضرائب .

وراحت النظريات حول حقوق المواطن وواجباته تتداعى الى ذهنه

بآلية بلهاء ، ولكنه صدها بلباقة ، وانصرف الى تنظيم طلب اخـــلاء السبيـــل .

وما ان فرغ ، حتى تنفس بارتياح ، وغمغم :

ـ والان لنبدأ !

... وسمع وقع اقدام وراءه ، وهفهفة ثوب حريري :

ـ هه ، ما بك يا سلوى ؟

ـ لقد طار النعاس من عيني ، وما دمت انت ساهرا فلن استطيع النـــوم .

وتناولت من المكتبة روايـة « الام » لغوركي ، وجلست الى جانبه وهي تهمس بوداعـة :

ـ هـل تسمـــح ؟

وقرأت في عينيه انه يفضل ان يكون وحيدا في خلوته ، فاردفت بصوت مخملي :

ـ أطمئن ... لن اضايقك ، وسأكون اهدأ من قطة فوق فـراش دافيء وثير ، في يوم شديد البرد .

وكاد يـرد عليهـــا :

ـ المرجو من حضرة القطة ان تلتزم بعهدها ، وان تتجنب المواء ، وحتى الدنـدنـــة .

ولكنه خشي ان يكون هذا الجواب ، مناسبة للاخذ والرد ، فاكتفى بالابتسام ، وانكب على الورقة امامه يحاول ان يبدأ قصته :

الخطوط الكبرى للقصة جاهزة . تسلسل احداثها واضح فـي ذهنـه . البيضة مكتملة الخلق ومستعدة للانزلاق ، وليس على الدجاجة الا ان تضع نفسها في لحظة التأزم ، ان تقوقيء قليلا لتخرج البيضة بحركة احتفالية ، يبدو انها ضرورية لكل عملية خلق .

هو بحاجة الى تلك اللحظة من التأزم . وهـذه اللحظة بحاجة الى مناخ ملائم يتمثل في صفاء الذهن ووضوح الرؤيـــة ، وانتقـــاء المثبطات او التخطفات الخارجية ، وها هو الان يكاد يوفر لنفسه المناخ، ليدخل توا في اللحظة الموعودة .

وماءت القطـةبجـانبه :

ـ ظفر ... هل عرفت ان جارتنا قد وضعت ثلاث توائم دفعة واحـدة ؟

وبلع ريقه ، ورد بعصبية متطرفـة :

ـ الحمد لله على سلامتها ، والرحمة لزوجها .

ـ وهل سمعت بما اصاب جارنا الفلسطيني ؟ لقد اجتـــاحته سيارة مجنونة ، فبترت ساقه اليمنى ، ثم فرت ، وتركت الساق تتخبط في بركة من الدم ، وترتعش في وهج الشمس .

... واعتقد انها ستتوقف قليلا لتعلق على الحدث المؤلم ، او لتسمح له على الاقل ان يبدي تأثره ، ولكنها لم تفعل بل تابعت :

ـ لقد حمل لنا ساعي البريد اليوم فاتورة الهاتف . هل تعرف كم بلغت قيمتها ؟ اجزر . مائة وعشرون ل.ل بالضبط .

... وافلتت لحظـة التأزم التـي كـان ينتظرها مـــن قبضة الاحتمال ، واسلمه الموقف الى لحظة تأزم من نوع آخر ، لم يستطـع معها اخفاء انفعاله ، فصاح بها :

ـ كفى . كفى . الا يروق لمواهبك الاخبارية ان تتجلى الا حين اخلد الى نفسي في محاولة للتنفيس عن كل تأزماتي الداخلية ؟

... وتجمعت القطة على نفسها ، ككرة من ندم وخجل ، وهمست:

ـ آسفـــة ...

ولم تكمل اعتذارها اذ قطعه عليها ابنهمـــا الصغير ، يقف على عتبة الغرفة ، وهو يفرك عينيه ويشهق :

ـ ماما انـا خـائف .

ـ وما يخيفك يا حبيبي ؟

ـ في حرامي ورا البـــاب .

وبدا ان الصغير كان يحلم حلما مزعجا ، فاحتضنه ظافر ، وحمله الى سريره ، وهو يؤكد له ويقسم الا شيء وراء الباب سوى عصـــا جده ، وان هذه العصا مستعدة لان تحطم راس كل « حرامي » يتجرأ على الدخول الى المنزل .

وعندما اطمأن « سامر » الى تأكيدات ابيه ، خصوصا بعد ان تحقق ان العصا تقف ، بالفعل ، وراء الباب في حالة تأهب وتحفز ، راح يدغدغ بيده الصغيرة ذقن ابيه الخشنة ويطلب اليه بدلع :

ـ بابا ... احكيلي حكاية .

... وحكى له ظافر ثلاث حكايات ، حتى اطبق اخيرا اجفـــانه الطويلة الحلوة على صوت الثعلب الماكر وهو يغني للغراب ، ويستدرجه للغناء ، كي تقع الجبنة مـن منقاره .

وانسل ظافر الى غرفته .

الصفحة امامه ما زالت بيضاء الا من بعض الاسهم والخطوط ، والطيور الخرافية التي رسمهـــا بلا وعي ، وعبارة « الدواء لنوال » في اعلاهـــا .

وقبل ان يأخذ القلم ، مالت عليه « القطة » تنصحه ، بكل مـــا في الهمس من دفء ونعومة ، واعتراف بائم لا هوية له :

ـ رفقا بصحتك يا عزيزي . لقد بلغت الساعة الثالثة بعد منتصف الليل . وآن لـك ان تنـام .

ينـــام ؟

صحيح . لقد آن له ان يفعل . فامامه في الغد نهـــار مجهد ، وقضايا كثيرة يترتب عليه ان يركض وراءها ويلهث ، وزبائن يسوطونـه بلجاجتهم ... أف ما اثقلهـــم .

وفيما كان يتساحب الى فراشه كالمهزوم ، خيل اليه ان الجواد الذي تعود ان يحك قلمه بحوافره ، صار بلا حوافر ، وان قلمه خشبة تأكلها النار وأحس بجفاف في فمه ومرارة ، وبعقم ذهني يأكل كـــل خواطره وافكاره ، ودهمه في الطريق ، جيش مـــن لافتـــات كبيرة ، حاصرته من كل جانب ، وراحت تتواثب حوله في رقصات هستيرية ، خليعة ، وتنفرس امامه كحراب لها الف عين بلقاء ، تبحلق في عينيه بكثير من التحدي والشماتة :

قسط البيت الذي استحق ، ضريبة الدخل ، فاتورة الهـاتف ، الدواء لنوال التي تسعل ، مفص الاطفال ، مواء القطط الليلية ، سائق جاره الفلسطيني ، الذي يتخبط في بركة الدم ، ويتململ في وهـج الشمـس .

بيروت — احمد سويد

اخر منشورات دار الاداب

			ق. ل
●	اعياد (قصص)	لعبد الله نيازي	٢٥٠
●	لا بحر في بيروت «	لغادة السمان	٢٥٠
●	الظمأ والينبوع «	لفاضل السباعي	٢٥٠
●	حتى يبقى العشب اخضر	لاديب نحوي	٢٠٠
●	ثورة الفقراء	لرجاء النقاش	٢٠٠
●	سلطنة الظلام في مسقط وعمان	لعوني مصطفى	١٥٠
●	كامو والتمرد	ترجمة سهيل ادريس	١٥٠
●	قصص كامو	ترجمة عايدة ادريس	٤٠٠
●	البلد البعيد الذي تحب (قصص)	لنزيزي الامير	٢٠٠